2 – البعـد الوطنـي والبعـد القومـي فـي شعـر حسيـن حيـدر

The national and national dimensions in the poetry of

Houssein Haidar

بقلم الباحث : حســن توفيــق مظلــوم.

باحث في اللغة العربية وآدابها

دكتواره في اللغة العربية وآدابها قيد المناقشة، جامعة الجنان

dr.hassan.mazloum@outlook.com

ملخص:

يتناول هذا البحث البعدين الوطني والقومي في شعر حسين حيدر، مجسدا رؤيته حول الوطن والأمة العربية التي يريدها قوية في وجه الأعداء...

فالوطن عند حيدر متوحد في حالته الشعرية بكل ما فيه من إنسان، وعناصر طبيعية، فولاؤه له مطلقا، والطاعة واجب مقدس...

أما الهموم العربية فيترجمها من خلال رؤيته الفكرية المنتمية إلى مرحلتين حزبيتين :بعثية، وناصرية،حيث برز قلقه من التشرذمات العربية،لذلك كانت قضايا الأمة العربية محور الاهتمام في قصائده،داعيا إلى الوحدة، ومتغنيا بالقدس وبالماضي العربي المجيد...

Summary:

This research deals with the national and national dimensions in Hussein Haidar's poetry, embodying his vision about the homeland and the Arab nation that he wants to be strong in the face of enemies... For Haidar, the homeland is unified in its poetic state with all its human beings and natural elements. Loyalty to it is absolute, and obedience is a sacred duty. As for the Arab concerns, he translates them through his intellectual vision belonging to two partisan phases: Baathism and Nasserism, where his concern about Arab fragmentation emerged, so the issues of the Arab nation were the focus of attention in his poems, calling for unity, and glorifying Jerusalem and the glorious Arab past...

المقدمة:

- **البعد الوطني:**

1. التوحد بالأرض.
2. العشق الجديد.
3. البعد الانساني للأرض.
4. الولاء والطاعة.

- **البعد القومي:**

1. الدعوة إلى الوحدة العربية.
2. الحنين إلى الماضي العربي.
3. القدس بين الواقع والرمز.
4. عودة الماضي المجيد.

- خاتمة البحث.

- تمهيد:

تكثر في شعر حسين حيدر القصائد ذات الاتجاه الوطني التي تجسد رؤية الشاعر إلى الوطن، وما يعانيه من اشكاليات، فضلاً عن البعد القومي، الذي يتضمن رؤية حيدر إلى الأمة العربية وتكوين دولة قوية تتصدى لمخططات الأعداء، وقد أشار إلى الإنجازات التي تحققت في عهد بعض قادة العرب ولا سيما جمال عبد الناصر. نقرأ في قصائده نقمة على الخونة العرب الذين يقضون على الإنجازات القومية ويطعنون التاريخ العربي، فضلاً عن الإطار الإنساني، الأمر الذي يجعلها تجارب إنسانية صادقة. وتشمل أبعاداً قيادية وقتالية واستشهادية.

إن هذا البحث يطرح إشكالية البعد القومي في شعر حسين حيدر، ويتفرغ إلى مباحث هدفها تسليط الضوء على العنوان الرئيس لهذا البحث.

- البعد الوطني:

شكلت العناصر البشرية، والطبيعية، وحدة متكاملة تمثل اندماج الشاعر بالأرض، ففاضت قصائده محبة وتوحداً معها.

وليس هذا بغريب على شاعر اتخذ حب الوطن قضيته الجوهرية بعيدا عن المتاجرة والتزلُّف.

لا نريد من هذا التمهيد أن نقدّم نتيجة لدراسة البحث، إذ يكفي أن الشاعر والدواوين التي أصدرها تحمل هموم القضايا الوطنية، وهذا ما دفعني إلى جعل هذا البحث عنواناً رئيساً يتفرع إلى النقاط التالية:

1-التوحد بالأرض.

2-العشق الجديد.

3-البعد الإنساني للأرض.

4- الولاء والطاعة.

1. التوحد بالأرض:

يبرز الشاعر المستوى الإنساني وقد توحد بالأرض ليكتسب بعداً وجودياً، ففي قصيدة له بعنوان«لَم لم تحملهم في عينيك»، وهي مهداة إلى روح الشهيد طربيه العنز أول فلّاح لبناني مقاتل،[1]

«... وذهبتَ لتسقي حقلَكَ ماءْ

وهناكَ فتحتَ شرايينَكْ

وصفعتَ بها وجهَ العالمْ

ممنوعٌ أن يأتي الغرباءْ...»[2]

الأبيات موجهة إلى طربيه العنز، حيث تقدّم المخاطب متوحداً بالأرض توحّداً تموزياً، لأن الشرايين التي تنفتح على الأرض تصبح جزءاً منها، وكأن ثّمة قنوات تربط بينهما، فالشرايين تحوّلت إلى جرح مفتوح يروي الأرض يوم الشهادة، التي تأبى أن تستقبل الغرباء في مملكة الوطن «ممنوع أن يأتي الغرباء»، فالحقول تُسقى الماء فتعطي الخصب، وتُسقى الدماء لتطرد الغرباء. الجرح، الشرايين، الدماء، مفردات لوّنت قصائد حسين حيدر، لأن ينابيع الأرض جفَت على أرض الطغاة، وتفجرّت ينابيع من دماء لتعيد الحرية وتعود الينابيع.

لقد استطاع الشاعر من خلال هذا النص أن يقدم المقاوم بأبهى صوره، مانحاً إيّاه بعداً عالمياً، «وصفعت بها وجه العالم»، ولكننا نلاحظ أنَّ الشاعر يخلط بين المفاهيم الوجودية، والتموزية دون أن يكون هناك دقة في توظيفها، وإنما جاء استعمالها بعفوية تأخذ بعين الاعتبار الشروط الفنية الخاصة بهذه المفاهيم.

2. العشق الجديد:

العشق موضوع كثر طرحه في الشعر العربي، لكنّه اتخذ منحىً جديداً عند حيدر، يجمع المحسوس فيكثّفه ليرقى إلى مستوى المجرّد، بل يفوقه أحياناً، ففي قصيدة له بعنوان «أرنون» (كتبت هذه القصيدة قبل سقوط أرنون بسنة ونصف). وعندما سأل

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، لَم لم تحملهم في عينيك» (وقد نظمها سنة 1972)، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،ط1، 1985،ص:194.
(2) م.ن، ص:196.

القائد الإسرائيلي عن الأسرى أجيب:» ليس من أسير، قاتلوا جميعاً حتى الموت: «[1]

«... كم عاشقٍ عندكُمْ تابَتْ لواعُجهُ

وعاشقٍ من صخوري الصُمِّ لمْ يَتُبِ

فسلْ صخوري عن العشقِ الجديدِ، فقدْ

تُنبيكَ واحدةٌ عن قصَّةِ النُدُبِ

عن الجراحِ التي سالَت بلا ألمٍ

وعن حنانٍ يساوي صخرةً بأَبِ

توحَّدُوا لا تسلني كيفَ، قُلْ لهمُ

يا شاعرَ الأرضِ والأمطارِ والحُجبِ

جِراحُهُمْ حَفَرَتْ في الصّخرِ لافتةً

تقولُ: ماذا جرَى يا أمَّةَ العربِ...»[2]

هذه القصيدة أهداها حيدر إلى ابنه «رواد» قبل سقوط قلعة أرنون بسنة ونصف؛ حيث قيل: إنّ قائداً إسرائيلياً سأل عن الأسرى، فأجيب بأن ليس من أسير، فقد قاتلوا جميعا حتى الموت داخل القلعة، وفي هذا الإطار التاريخي يتوجه حيدر إلى المقاومين متحدثاً عن كثرة عشاق الشهادة، الذين لا يكفّون عن السير قدماً في هذا الطريق، فالمعروف أن العاشق يمرّ بأوقات تفتُرُ فيها عواطفه، أمّا المقاومون فإن عشقهم الشهادة يزداد يوماً بعد يوم:»وعاشق من صخوري الصُّمِ لم يتُبِ»، علماً أن هذه الصخور شهدت قصصاً عن النُدب «والجراح التي سالت بلا ألمٍ، «والجراح لا تكون كذلك إلا في سبيل قضية كبرى كالأرض؛ ومن هنا يأتي توحد المقاومين ردّة فعلٍ طبيعية على تخاذل العرب وآثامهم وانقسامهم.

فيبقى المقاومون الضمانة الوحيدة للأمة: «تقول ماذا جرى يا أمّة العرب».

وانتماء الشاعر للأرض، هو انتماء عقائدي، وجودي، لأنه يشمل كل ما يمّت إلى

(1) حيدر، حسين،الديوان،ج1، «أرنون» وقد نظمها في 15/1/1981.
(2) م.ن.،ص:96، 97.

الإنسان بصلة: الحياة، الموت، الصراع الدائم بينهما، وهذا ما يدخله دائرة الصراع الوجودي.

ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم ترداد كلمة الصخر، فقد وردت في النصين السابقين أربع مرّات[1]، ولم يكن ورودها عادياً فقد جاءت مقترنة بما هو إنساني (ذاكرة، جراح، سل، حنان...)، وهذا يوحي برؤية حيدر المتجذرة انتماءً للأرض، فهو صمود يشترك فيه كل شيء من الإنسان، والصخر، ليشكلا وحدة متناغمة تحفر مجراها في أعماق الشاعر.

إن أهم ما يلفت في هذا العشق الجديد هو جدّته بالفعل، فأن تسأل الصخر عن العشق الإنساني فهذا يخالف القاعدة الغزلية العربية القديمة، من حيث إن الرجل هو الذي يبحث عن المرأة فيفتش عن مفاتنها، أما هنا فالصخر مُطالب بالإفصاح عن هذه الحالة من العشق، وهذا ما يخلع على رؤيته بعدا حداثياً.

3. البعد الإنساني للأرض:

يتّحد البعد المادي، بالحس الإنساني في شعر حسين حيدر، فنكاد لا نميز بينهما في كثير من أبياته الشعرية، فكيف تطالعنا هذه الظاهرة في نصوصه؟ ففي قصيدة له بعنوان: «صار مجد الموت إلغاء المآتم «، نجدها ترتبط ارتباطاً شديداً بعلاقة الإنسان بالأرض، ذلك أنها تتضمن مناسبة إنطلاقة المقاومة الوطنية اللبنانية من خلال تحية قدّمها الشاعر في غربته (أبوظبي) تشرين الأول 1983 فيقول:

«...حُوصِرتْ أمواجُ بيروتَ، وقالو سوفَ تركَع

رَسَمَتْ وجهي على حبّاتِ رملٍ وهي تُصرَعْ

قُطعتْ زيتونةٌ في ديرِ قانون، لأرضعْ

وعلى أسلاكِ أنصارٍ سريري حِينَ أهْجَعْ

وَصَحَتْ أرنونُ في عينيَّ تنسى كيفَ تفزعْ

فإذا صوتي مكتومٌ وجَفنِي ليسَ يدمَعْ...»[2]

عندما تحدّث الشاعر عن أمواج بيروت أكسبها هوية الشيء الذي له حدود ويمكن تقييده، علماً أن الأمواج تتصف بحركة دائمة لا تثبت على قرار، مما أشعل صراعاً بين

(1) حيدر ،حسين، الديوان، ج1، ص 19، 96، 97، 98.
(2) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص: 17، 18.

الحصار من جهة، والأمواج من جهة ثانية، ليوحي بأن حصار بيروت لم يكن لمدينة معينة، إنما كان للحركة والحياة، فذهب بنا في أكثر من اتجاه في تقدير طبيعة ذلك الحصار.

وتحافظ بيروت على هويتها الإنسانية، ليخبرنا الشاعر أن حصارها، هو حصار للإنسان، أي للإرادة والقرار وليس للمنازل والطرقات. ليخرج بيروت عن هويتها الموضوعية (طرقات، منازل...) ويكسبها هوية الإنسان، ولهذه الهوية الفنية الجديدة دلالة شديدة الإيحاء على تمسك بيروت بالشاعر، وكأنها تدعوه إلى مقابلة هذا التمسك بانتماء يحدث تعادلاً بين الأرض والإنسان، واستمر النسق الفني لتأكيد الهوية الجديدة بحركة الركوع المطلوبة. فالأرض بالنسبة للشاعر هي مصدر أساسي لإنتاج الحياة، وأن الجذور التي تقتلع منها إنما هي موت لأبنائها، وهذا يوحي بعلاقة جدية بين الأرض التي تهب نفسها للإنسان من جهة، والإنسان الذي قد يتخلى عنها من جهة ثانية، وقد ظهر توحّد الشاعر بارتسام وجهه على حبّات الرمل، هذه الحبات هي من لواصق الأرض أخذت إنسانيتها مرتين، الأولى باتحادها مع المشاعر، والثانية وهبها إيّاها الفعل (تُصرعْ) بمعنى آخر لفعل الشهادة والقتل. فهوية بيروت العاصمة، هي نفسها هوية بيروت الإنسانية، أرنون تاريخياً، والمشتعلة يقظة، فإذا بها شعلة المقاومة والصمود، في حين بقي صوت الشاعر مكتوماً وجفنه لا يقوى على البكاء. وهذا الصراع القائم بين أرنون (الصمود)، والشاعر (الثورة – الشعب)، تكسب هوية جديدة لكل من الشاعر، وأرنون، وهذه الهوية إنسانية بأبعادها وتفاصيلها.

يمكن القول أن الأرض في شعر حسين حيدر، هي وطن كامل وقد ارتقى بها إلى مستوى الإنسان، وذلك بأسلوب يكتسب من الحياة قوتها وجدّتها، ويُنيط بها كلّ إبداع وشعر، إنها رؤية حسين حيدر.

4. الولاء والطاعة:

وفي الإطار التاريخي نفسه، نجد مسألة الولاء والطاعة للأرض من المقومات الاساسية التي ينبغي أن تقوم عليها المقاومة كي تنجح مسيرتها، وانطلاقاً من هنا، تبدو صورة الأرض في شعر حيدر شبيهة بصورة الحبيبة، حيث تقدم لها الطاعة كاملة، الأمر الذي يعني أن رؤية الشاعر ذات منحى فلسفي وجودي:

«... عوّدتني أمِّيَ الينبوعُ من صفوٍ دمائي

فلغيرِ الأرضِ ما قدَّمْتُ شيئاً من ولائِي

إخوتي الأشجارُ، والأشجار، أسخى في العطاءِ

ورفيقي الصخرُ، في بالي أمَامِي لا وَرَائِي...»[1]

الانتماء للأرض عند حسين حيدر يُبرز في هذه الأبيات نزعته الرومنطقية الحالمة بالتغيير والثورة.

فالأرض بالنسبة إليه هي الأم والولاء، والولاء لها من الأمور الطبيعية. فهي هنا أخذت بعداً إنسانياً لتحدد العلاقة بينهما (الأرض، الشاعر) على هذا الأساس.

وبناءً عليه فالعلاقة بين الأم وابنها علاقة طبيعية غير مصطنعة وأول إفرازاتها هو التعلق والولاء.

ثم يجعل الشاعر الأشجار إخوته، فأثار فينا الدهش الشعري لكونه أتى من خارج حقل التوقعات، ولهذه الهوية دلالة على عطاء الأرض الذي يُمَكّن العلاقة بين الطرفين (الأرض، الإنسان)، وهذا ما يجعل الشاعر في البيت الرابع يتخذ الصخر رفيقه، ومما يعني أن العربي المعاصر، هو في حال دفاع عن النفس، وليس في حال هجوم على الآخرين (الأعداء).

وهنا لابد من تدوين الملاحظات التالية:

إن ولاء حيدر لأرضه يحمل في طياته عشقاً صوفياً لها، وهو ليس ولاءً ناجماً عن الخضوع والاستعباد، إنما هو ناجم عن حب وفرح وتوحد، كل ذلك جاء بأسلوبٍ رؤيوي.

– البعد القومي في شعر حسين حيدر:

لم يقف حسين حيدر عند الهموم الوطنية اللبنانية، بل تعدى ذلك إلى الهموم العربية، إيماناً منه بأنّ البعد الوطني لا يأخذ حقيقته إلى من خلال البعد القومي، وفي ذلك اشارةً إلى رؤية حسين حيدر البعثية الناصرية التي تقلقها التشرذمات[2] العربية، وما ينتج عنها من تصدّع للواقع العربي ومن هنا كانت قضايا الأمة العربية محور اهتمامه، بل هاجس

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص:19.

(2) الحصري، خلدون ساطع، حول الوحدة العربية، المستقبل العربي، بيروت – لبنان، السنة 2، ع. 10، تشرين الثاني 1979، وهو يتناول بالتفصيل هذه الأمور.

يؤرقه فيرفعه إلى الابداع.

ويتناول البعد القومي عنده النقاط التالية:

1. الدعوة إلى الوحدة العربية.
2. الحنين الى الماضي العربي.
3. القدس بين الواقع والرمز.
4. عودة الماضي المجيد.

1. الدعوة إلى الوحدة العربية:

رأى الشاعر بمخيلته الواسعة أخطارا» تفرّق العرب وتشرذمهم، فانبرى يدعو في شعره إلى ضرورة التضامن العربي، فهو يعيد لهم أمجادهم ويوّحد كلمتهم، الأمر الذي يمّهد لتحقيق الآمال العربية، وتعَدُّ قصيدته «دهشة العشرين» خير دليل على ذلك فيقول فيها:

«... يا إخوة القدسِ، عينُ القدسِ دامعةٌ

فقــد تناهى من الأحداثِ إنذارُ

هُــويّــةُ الثــــائـــرينَ اليـومَ في خـطرٍ

وكـــلُّ جهدٍ خلا التّوحيد إهدارُ

وكُــلُ رأيٍ خـــــلا الإجـــماع مُبْتَسَرٌ

وكـلُّ فــكرٍ يهزُّ الّصَّفَّ دمَّارُ

... يـــا اخــوةَ الحرفِ في يافا أذَكّرُكُمْ

أهــل البنادقِ ما كلُّوا ولا داروا

عـــــاهدتُمُ الأرضَ حتى النصرِ ثورتُنا

وكُلُّكُمْ عندَ بابِ الفتحِ أنصارُ...»[1]

ينادي حسين حيدر إخوة القدس ليعلمهم أن هذه المدينة قد لقيت من المآسي ما ينذر بانفجار ثورة عارمة على الظلم، ومن هنا ضرورة توحيد الجهود ولا سيما جهود الثائرين،

(1) حيدر، حسين، الديوان، ص: 217،218.

لان تفرّقهم يجعلهم في خطر دائم، ولا يعني هذا التوحد توحداً في السلام فقط، وانما توحد في الكلمة والموقف والفكر، وهي عناصر تشكل صلب المقاومة في أي بلد أراد التحرر من نير الظلم والاستبداد.

لقد أخذ الشاعر على عاتقه مسألة رصّ الصفوف العربية فتراه لا يكاد ينسى الإشارة إلى هذه القضية وكأنها هاجس يقضُّ مضجعه ليل نهار.

لا بد من الإشارة إلى تأثره بالرؤية البعثية لمفهوم الوحدة العربية، فيقول الدكتور « نزار عبد اللطيف الحيدثي»:

«تصورنا الوحدة العربية تصوراً إنقلابياً ثورياً مخالفاً المواقف الفكرية والسياسية التي كانت ترى في الوحدة حلماً أو حتمية تمنحها آلية التحقيق، ولهذا تتحقق بانبعاث الوحي في المجتمع العربي...»[1]

ومن هنا يأخذ نداؤه إخوة الحرف في يافا دلالته الحقيقية، ذلك أنّ أهل البنادق أي المقاومين، لم يملُّوا جهادهم، بل عاهدوا الارض بالإستمرار قدماً بالثورة حتى النصر.

نستنتج من ذلك أنّ الشاعر ضمّن رؤيته البعثية في ما أوردناه من أبيات شعرية، وذلك بأسلوب فني جميل.

2. الحنين إلى الماضي العربي:

صوَّر الشاعر حنينه إلى الماضي العربي، من خلال الرموز العربية الشديدة الارتباط بحضارة العرب وعراقتهم: حطين، صلاح الدين، عمر بن الخطاب، جمال عبد الناصر...

ولعلَّ قصيدته « نأتي لذكراك» (التي نظمها سنة 1981، بعد عشرة أعوام على رحيل عبد الناصر) خيرُ معبّرٍ عن هذا الحنين:

(1) الحيدثي، نزار، عبد اللطيف، القومية العربية والنظرية القومية في فكر حزب البعث العربي الاشتراكي، تطور الفكر القومي العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1 ، حزيران 1986، ص: 256.

«نـأتي لــذكراكَ أمْ تــأتي لــذكرانَاْ

أم حــائــرٌ أنتَ مــن أوجاعِ لُقيانَا

يـا أجمــلَ العُمرِ، لــم ننكرْ هزيمَتَهُ

لكـنّه فــي غــدٍ يــرتَــدٌّ طُـوْفَـانـاَ

...حطّين، تبكي صلاحَ الدّينِ فارسَهَا

فــهلْ شجاكَ النـوَّى يا سهلَ بَيْسَانا»

وقــبَّةُ الصــخْرَةِ اشـتاقت إلى عُمَرٍ

يجرِّدُ السَّوطَ في وجهِ الذي هاناَ...»[1]

يستعيد الشاعر ذكرى جمال عبد الناصر بعد عشرة أعوامٍ من رحيله، فيتساءل: هل نتذكرك أم تتذكرنا في هذه الأوقات التي نعيشها؟ أم أنه (عبد الناصر) حائرٌ من كثرة المصائب التي ألّمت بالواقع العربي؟ وهو سؤال يخرج عن كونه يتطلب إجابة ليصبح تأكيداً لمضمون السؤال نفسه، لذلك فإن هذا القائد سيأتي غداً طوفاناً [2].

وسرعان ما ينتقل الشاعر إلى حطين، وهي واقعة عربية معروفة، انتصر فيها صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين والحق بهم هزيمة نكراء. وها هي اليوم تبكي فارسها نظراً لما يصيبها على أيدي قوات الاحتلال الصهيوني من تنكيل وتعذيب، فيسأل سهل بيسان في فلسطين عمّا إذا كان قد انتابه حنين إلى الماضي المشرق، وفي السؤال خيبة أمل من إمكانية عودته، خاصة وإن قبّة المسجد الأقصى قد اشتاقت هي الأخرى إلى عمر، الأمر الذي يعني إنتفاء الرجال القادرين على صنع التاريخ العربي لأنهم لم يعودوا يملكون زمامه فلا يبقى سوى الحنين إلى أطلال الماضي، فيما يظلّ الحاضر مقفلاً أبوابه بمفاتيح لا يحسن التقاطها إلا رجال أصبحوا في عهدة الماضي.

تتمثل خصائص الرؤية إلى الماضي العربي لذلك الحنين الذي يسعى جاهداً لاسترجاع مقومات الواقع العربي بكلّ أبعاده وحيثيّاته، كلّ ذلك بتراكيب لا يشوبها ما هو نثري.

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص:84، 85، 86.

(2) لا بد من الإشارة هنا أن الطوفان رمز حديث كثر استعماله في الشعر المعاصر مقتبس من الكتاب المقدس والقرآن الكريم.

3. القدس بين الواقع والرمز:

إن رؤية حيدر إلى القدس، تتراوح بين الحقيقة والخيال، أي بين الرمز والواقع ذلك أن الإبداع الشعري توحّد بالمكان على الصعيد القومي لينتج بذلك صورة شعرية تتخللها خيوط من الواقع. ولعّل قصيدة «حبة من رمل بيروت» (التي نظمها الشاعر في وداع المقاومة، بعد تسعين يوماً من معجزة الصمود في بيروت في آب 1982) خير شاهد على المزج بين الواقع والرمز في قراءة المقاومة:

«...حَسِبوُا تنسَوْنَ هذا البرقَ في أرضِ الشتَّاتِ

حَشَدوُا الْإغراءَ سمراءً ونهداً في فلاةِ

علَّقُوا أثوابَ خزٍّ فوقَ أسيافِ الكُمَاةِ

لَمَّعُوا منْ ذهبِ البترولِ أقفاصَ البُزَاةِ

قُلْ لُهمْ يا هازمَ الموتِ على بابِ الحياةِ

ليتكُمْ تدرون أنَّ القدسَ جزءٌ من صَلاتِي...»[1]

كثيرة هي القصائد التي تناول فيها الشاعر هذه العاصمة فإذا ما أجرينا عملية إحصائية تبين لنا أن هناك أكثر من عشر قصائد في ديوانه برزت فيه القدس واحتلت صدارتها[2]. ولذلك دلالة واضحة على المكانة التي تحتلها هذه المدينة في نفس الشاعر، كونها نقطة الارتكاز في الصراع العربي الإسرائيلي، ومنها تتبع سائر المعاني القومية.

كنّى الشاعر بالبرق عن النضال الذي يعيشه الفلسطيني، خصوصاً أن الفعل حسب يدل_ هنا_ على الاعتقاد الخاطئ، والأبيات التالية تؤكد ذلك.

ففي البيت الثاني أشار الشاعر إلى دلالة محسومة في الإغراء، وهو مفهوم معنوي الأمر الذي خلعه عن هويته الحقيقية، وأكسبه هوية الشيء المحسوس موحياً بمحاولات كثيرة قام بها المحتل ليسلي المقاوم عن أرضه.

وتستمر المحاولة، حيث إن المحتل يجعل الفلسطيني يخدع بالحرير الناعم بدل الاهتمام بالسلاح الذي هو سبيله الوحيد إلى تحرير المقدسات.

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص:47.
(2) م.ن.، ص:45، 85، 86، 89، 95، 112، 145، 212، 217، 266، 270، 272، 275، 277، 279.

ويتمادى المحتل في استغلاله الخيرات العربية المتمثلة بالنفط لينشئ بها سجوناً يُدكّ فيها الأبطال المقاومون ويسكت صوتهم المحق. وفي ذلك صورة إبداعية تشخيصية عن الواقع العربي وما يعانيه من تصدّع، فهو لا يمتلك زمام أموره، خصوصاً وأن ما يشكل العصب المحرّك لهذا الوضع بات في عهدة الأعداء.

ثم يخاطب الشاعر الفلسطيني الذي كنّى عنه بهازم الموت فأثار فينا الشعرية، لأن المهزوم في هذا التركيب هو من طبيعة لا تُهزم، وهذا ما يفتح دلالة المقاومة على احتمالات هائلة يحق لكل منّا ان يتصوّرها وفق همّه واهتمامه وثقافته. وسرعان ما يدخل هذا التركيب مع تركيب آخر هو باب الحياة، وهذا يعني: أن المقاومة في أساسها تقوم على أحد أمرين: إمّا الحياة وإمّا الموت ولا مساومة بينهما.

ويمزج في البيت الأخير التمني (ليت) بالمخاطبة (كم) وهي مخاطبة الإحتلال واللافت أن التمني في أساسه هو ما يستحيل وقوعه، لكنه هنا جاء في صورة اليقين لان هزم الموت على باب الحياة يبطل مفعول التمني، فيحوله إلى حقيقة ساطعة بعد أن كان شكاً يميل إلى الإنكار يصل بنا إلى اعتبار القدس جزءاً من صلاته، موحياً بأن انتماءه القومي وإن كان يعيش حال صراع، ولكنه فوق جميع الشبهات.

وفي النهاية يمكن القول: إن رؤية حيدر إلى القدس تستمدّ عناصرها من عدّة أشياء أهمها: الواقع، والرمز، والحنين، والأرض، وهي عناصر مندمجة فيما بينها تشكل الرؤية الشعرية التي تلملم خيوطها من أفق الصورة مضافة إلى الواقع.

4. عودة الماضي المجيد:

حلُم الشاعر بعودة الماضي العربي المجيد نتيجة الواقع العربي المتصدع، وما يحمله من إحباط للنفس وشلل للعزيمة، فإذا به يستحضر هذا الماضي، وكأنّه صورة ماثلة للعيان، ففي قصيدة: «ها هم يأتون» (يهديها إلى أبطال حرب تشرين سنة 1973) يقول:

«... ها هم يأتُونْ

عُقْبَةُ يتألّقُ ثانيةً بينَ الفرسَانْ

ومراكِبُ طارقَ نارٌ في بحرِ الجولانْ

ها هُمْ يأتونْ

مُعتَصِمٌ يحملُ ماءَ فُرَاتْ

يسقِي أغراسَ الوَحدَةِ في أثلامِ المرتَفعَاتْ...»[1]

يستحضر الشاعر في هذه الأبيات جملة رموزٍ عربية تاريخية: عقبة بن نافع ، طارق بن زياد، والمعتصم العباسي، وفي عودة رجال التاريخ هؤلاء عودة للماضي العربي بكلّ مباهجه وإشراقاته، فكلٌّ واحد منهم يمثّل حقبة تاريخية مشرقة في سفر التاريخ العربي.

وحرب تشرين واحدة من محطّات هذا النضال، فها هي أعمال عقبة، وطارق، والمعتصم، تعود من خلال الانتصارات التي حققتها حرب تشرين التحريرية. وهذا ما يذكرنا بما ذهب إليه أحد الباحثين من أن الرجوع العربي إلى الماضي المجيد خاصة عروبية.[2]

يمكننا أن نستنتج أن التراث العربي الحضاري الإسلامي يشخص في شعر حيدر، بحيث يشكل المفصل الأساسي دون ان يقوى على التحول إلى قناع.

- خاتمة البحث:

بعد انتهائنا من معالجة البعدين الوطني، والقومي أمكننا تسجيل الملاحظات الآتية:

على الصعيد الوطني:

1. الحسّ الإنساني في شعر حسين حيدر يتوّحد في حالة شعرية مع الطبيعة، فينتج عن ذلك صورة شعرية تقرّب البعيد وتبّعد القريب، واللافت هو البعد الصوفي الذي اعترى شعر حيدر، فتراه يستعمل أسلوباً تصوفياً ويسعى لرصد المفردات المرتبطة بالعشق الجديد، فضلاً عن كونه يمرُّ مع الارض بفصول وتحولات متغيرة وتغيرات متحولة.
2. تبقى الفكرة وهي عميقة والتي يحاول الشاعر مدّها بعناصر من الخيال.
3. يلاحظ أن حيدر يرصد محطات مهمة في التاريخ العربي، وكأنه يحاول إعادة إنتاج هذا التاريخ شعرياً علّهُ يكون أفضل من الواقع المُخزي.

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص:166، 167.

(2) نافعة، حسين، القومية العربية والتفكك في الوطن العربي (رد على آراء فؤاد عجمي)، دراسات في القومية العربية والوحدة بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، أكتوبر 1992، ص: 180.

4. أما الأسلوب الذي اعتمده الشاعر، فهو شعري فنّي من خلال تراكبيه وصوره.

أمّا على الصعيد القومي:

1. إن رؤية حسين حيدر قومية الطابع، فهي تربط بين الحكّام من جهة، وجمال عبد الناصر من جهة ثانية، إنها جدلية أولاً وقبل أي شيء آخر.

2. التراث العربي شاخصٌ في شعره، وقد تجلى ذلك بذكر بعض الملامح التراثية التي تشكل عموداً أساساً للحضارة العربية.

3. نجد بعض الملامح الرومنسية مثل الحنين والأرض والطبيعة، وهي ليست رومنسية انفعالية أو هروبية، ولكنها ناجمة من عمق الرؤية إلى الوجود.

4. تكثر الصور الشعرية، التي من شأنها إبداع عوالم جديدة تُعنى في استيعاب الصورة الواقعية، وتشكل موضع قراءة من قبل الشاعر.

5. يلجأ الشاعر إلى الرمز كأسلوب لتكثيف الرؤية، أو لقراءة أمورٍ لا تسعفه اللغة العادية في التعبير عنها.